# حسن الضوي

قصة

بقلم محمد الحديدي

عندما سمعت هذا الاسم في الاتوبيس ، استرعى انتباهي فجأة . كنت جالسا رغم الزحام الشديد ، واذكر جيدا ان هذا هو الذي كان يشغل بالي حينئذ . نعم ، كنت افكر في الزحام واغبط نفسي على انني وجدت مكانا للجلوس ، فقد كان امامي شوط طويل من حدائق القبة الى الجيزة ، والمشكلة في مثل هذه الظروف هي العثور على فكرة تشغل الوقت . فالذهن لا يمكن ان يتوقف ابدا ، الا بالموت ، وعلى هذا بدأت افكر في الزحام ،وكان احد الواقفين هو الذي ذكر هذا الاسم ، « حسن الضوي » ، كان يحادث شخصا اخر بالطبع ولكني لم أكن ارى ايا منهما . احسست عند سماع الاسم بهذا الشعور الذي ينتابنا احيانا ـ او ينتابني انا على الاقل ـ ويجعلنا ندرك ان هناك « شيئا ما » كان نكون قد سمعنا هذا الاسم من قبل او عشنا هذه اللحظة من قبل . شعرت على اية حال ان هذا الاسم الذي يتردد في محادثة بين شخصين لا علاقة لي بهما ، ليس مجرد اسم بالنسبة لي، انه اكثر من ذلك ، ولكن لماذا ؟

لعلى سمعته مرة قبل هذه ؟ لا بد ان الامر كذلك ، لا يمكن ان يكون شيئا اخر ولكن .. متى ،واين ؟ لو ان شخصا اخر هو الذي حدث له ما حدث لي لما اعتبر ان هناك اية مشكلةولكان قد تجاهل الامر تماما وافترض انه طالما انه لا يتذكر اصل الموضوع فلا بد انه شيء لا اهمية له، وما الذي سيفعله لو امكنه ان يتذكر ؟ لا شيء .... فليس الامر اذن ويجعله يلحق بالماضي المليء بامور كثيرة من هذا النوع . ولكن المسالة في حالتي تختلف كثيرا فانا اعرف نفسي ، انا ادرى الناس بها ، واعرفذاكرتي وهي ذاكرة غريبة بصعب وصفها تحطم قيود الزمن وتحقق نسبية لم يصل اليها اينشتين نفسه ، احيانا تثب اليها اشياء حدثت وانا طفل واحيانا تمحى منها احداث لم تمض عليها دقائق ،وكثيرا ما اسير في الطريق وادى وجها رأيته من قبل ولكن اين ؟ واظل اقدح ذاكرتي واترك ما انا فيه واهمل عملي ونزهتي وطعامي واغرق في السرحان حتى اتذكر بعد عذاب طويل ان هذا الشخص يعمل جرسونا في مقهى جلست فيه مرتين او ثلاثا ، ولكنه الان يلبس جلبابا وطاقية بدلا من البنطلون الاسود والسترة البيضاء ، وكانه يتعمد ان يحيرني ويقلق راحتي . بل يصل الامر احيانا الى مجرد عابر سبيل قابلته عند بائع سجائر او مثلجات ، تصوره ذاكرتي اللعينة وتواجهني به الظروف وتدخله حياتي فجاة كالعفريت .

كان الامر مجرد اسم هذه المرة ، ولكني احسست بالمشكلة وهي تقترب ، من المؤكد انني سمعت هذا الاسم من قبل ، وخير لي الف مرة ان احتاط لنفسي واكشف السر من الانقبل ان اقع في ورطة لا بد لها من معجزة .

ولكني لم اكن حتى ارى المتحادثين من حيث كنت اجلس . ماذا افعل ؟ هل اقف وارفع عقيرتي صائحا :

ـ يا ناس ! من الذي كان يتحدث وذكر اسم حسن الضوي ؟

غير معقول طبعا ، ساكون اضحوكة بين الركاب. والاسوأ من هذا انني قد لا اصل لشيء لان الرجل الذي كان يتحدث وزميله المستمع قد يظنان اني مخبول او على الاقل لا يجدان مبررا لقطع حديثهما من اجل مجهول مثلي لا شان له بهما .

وما هي الا لحظة حتى توقف الاتوبيس ونزل عدد من الركاب عند حدائق الحيوان ولم يعد هناك ركاب واقفون وجلس من خلفي رجلان منهمكان في الحديث ، احدهما يلبس جلبابا وطاقية والاخر بذلة عليها اثار تعديلات متكررة . وكان الاخير يقول :

ـ لكنه رجل طيب ، لا تعرفه الا اذا عاشرته طويلا ..

آه .... لو انهما كانا يتحادثان عن مؤنث او جماد لتاكدت تماما انهما ليسا هما اللذين ذكرا الاسم ولكنت قد يئست من الامر والياس مريح كما يقول ابو العلاء المعري ، ولكن العبارةتنطبق على حسن الضوي او تصلح لذلك على الاقل . انه قد يكون تدخلا سخيفا مني ان اسالهما ولكن الكسفة امام مجهولين لن اراهمابعد ذلك ـ ادعو الله ! ـ اهون من الندم على تفويت الفرصة . التفتاليهما محاولا ايجاد مناسبة ولكن الرجل ذا البذلة لم يتوقف ابدا عن الحديث وكانه في غير حاجة للتنفس او « بلع الريق » كما يقولون . لم يكن هناك مفر من مقاطعته :

ـ تسمح ... من فضلك ؟..

ولكن يبدو انه لم يسمعني بسبب الضجة التي يصنعها الاوتوبيس وغيره من ادوات الطريق ، وهو نفسه ، ولم اكن متاكدا من انني ساجرؤ على المحاولة مرة ثالثة ، فلتكن الثانية هي الاخيرة اذن ، رفعت عقيرتي بقوة :

ـ تسمح يا ....

ولم ادر كيف اناديه ، « يا أستاذ ويا بك » لا تنطبق عليه تماما وقد يظن اني اسخر منه ، و« يا عم » لا تليق ايضا فهو في مثل

ستي . اما كلمة «يا سيد» فهي لم تزل غير شائعة ويعدها البعض لقبا اميريا خاليا من المجاملة . صممت على انه يستحيل ان اتراجع في هذه اللحظة وبسبب عقبة تافهة كهذه ، كان الرجل يضع يده على ظهر مقعدي فلمستها ، انقطع حديثه فجأة والتفت اليّ ، وكان زميله ذو الجلباب قد بدأ يعلق على حديثه دون ان يعرف بالطبع انني قد قطعته . التفت اليه ذو البذلة وأمسك بذراعه ليسكته ثم التفت اليّ صائحا :

ـ نعم ؟ اي خدمة يا استاذ ؟

وصدرت عنه رائحة كحول وتبغ رديء ، كان لها اثرها علي بالطبع ، سألته :

ـ ايه .. هو .. ميدان الجيزة ، سيأتي بعد ذلك ؟

فتأملني لحظة وكأنه يعرف اني ولدت وعشت ثلاثين عاما في الجيزة ، وقال :

ـ ايوه يا استاذ ...

واستمر ينظر اليّ وكأنه يقول « ارجو ان نكون قد انتهينا من هذا العبث حتى استطيع ان اواصل حديثي مع صاحبي دون ان تقاطعنا بدون مناسبة » . شكرته وغادرت الاتوبيس مع اننا لم نكن وصلنا ميدان الجيزة ، بل ان منزلي في اول شارع الهرم . لعنت نفسي والعالم وحسن الضوي ، وهذا الشيء الذي ينتابني ولا اعرف كيف اسميه. وان كنت قد امكنني ان التمس بعض العزاء من تذكر حقيقة واضحة وهي انني لم اكن اعرف هل كان هذا الرجل الذي جلس خلفي هو الذي ذكر الاسم ام غيره . اكبر الظن انه لم يكن هو .

فضلت ان اسير الى المنزل ووصلته بساقين لا يحملان الجسد كما يقول شوقي .

تعشيت ورميت نفسي على السرير وصممت الا انام الا وقد تذكرت اين سمعت هذا الاسم ولو انفقت سنة في التفكير .لن اعمل شيئا اخر مهما يكن . وتذكرت بعد فترة ، كالمعتاد ، المسألة في غاية البساطة . كنت في مأتم زوج خالتي منذ حوالي ثلاثة اشهر ، وانا اخالط خالتي هذه واولادها بشكل شبه دائم ، ولذلك كنت اتقبل العزاء مع اولادها وكأني واحد منهم . تذكرت الموقف تماما وتصورته كما اتصوره الان وكما مثلته عشرات المرات بعد ان ذكرته ، القرىء ينتهي من القراءة والمعزون ينهضون للانصراف ، والصيوان متسع ومضاء جيدا ونحن مصطفون ، اولا خالتي وانا على يمينهم ثم على يميني شخصان اخران ، مر علينا بعض المعزين وصافحونا واحدا واحدا، احدهم صافحني بطريقة غير روتينية ، اذكر الان شكله جيدا ،نحيف وقصير وذو شارب متوسط ونظارة ، حرك شفتيه قليلا دون ان اسمعه ولعله لم يقل شيئا ، وان كنت لا استطيع ان اؤكد انه لم يقل «البقية في حياتك» او «لاجعلنا الله نعزيكم في مكروه بعد الان» ، او اي شيء من هذا القبيل . واذكر جيدا انني اجبته بهمهمة اعتدتها في مثل هذه الظروف ، لا اقول شيئا واضحا ولكن الذي يواجهني في مثل هذه الحالة سيعتقد انني قلت شيئا من نوع « حياتك الباقية» او حتى «سعيكم مشكور » ، وقد يجزم بانه هو الذي لم يسمعني جيدا، والواقع انني اتعمد الا انطق شيئا واضحا وذلك لكي اتجنب ان اكون غارقا في احدى شطحاتي البعيدة ، وآتي في مناسبة كهذه واقول مثلا « وانت بالصحة والسلامة » « الله يبارك فيك » . تبادلنا الهمهمة اذن، وكان المفروض ان ينتقل الى الشخص التالي ولكنه بدلا من ذلك هز يدي مرة اخرى ونظر اليّ بوجه عليه اقرب تعبير الى الابتسامة يمكن ان تسمح به ظروف المأتم ، وقال :

ـ حسن الضوي ...

فاجبته متلعثما :

ـ ايوه طبعا ..

وكان بالضبط كأنه يريد ان يقول لي : « ارجو الا تكون ناسيا من انا » او « انا هو حسن الضوي الذي ..» ولكن ،الذي ماذا ؟ وعلى ما اذكر رايته بجانب عيني وهو يصافح الجميع دون اتخاذ اجراء مماثل، فاما انه يعرفهم جيدا ويعرفونه ، واما انه جاء ليعزيني انا فقط وخشي الا اعرفه فيضيع جهده هباء ؟ ولكن لماذا يعزيني وأنا لا اعرفه؟ لعله زميل لي في العمل ممن يحبون ما يسمى « اداء الواجب » حتى ولو كانت رابطة الزمالة لا تعدو العمل في نفس الوزارة ؟

اصبح امامي الآن طريقان : ان اسأل خالتي واولادها، فالمأتم كان مأتمهم هم على اية حال ،وان اسأل مدير شؤون العاملين بالوزارة عن وجود شخص بهذا الاسم . ولم تقل لي خالتي شيئا ، فقد كانت ما تزال حزينة او على الاقل تبدو كذلك . لا هي ولا اولادها يعرفون احدا بهذا الاسم ، ولكن كان هناك بالطبع كثيرون من المعزين الذين لا يعرفونهم ، فقد كان المرحوم « محبوبا » من الجميع كما كان له اقارب واصحاب كثيرون . كما اتضح انه لا يوجد في وزارة الثقافة كلها شخص بهذا الاسم .

اسقط في يدي، ومرت ثلاثة ايام وانا كالغريق الذي لا يجد ما يتعلق به . وعرفت والدتي انني اعاني شيئا وحاولت ان تسألني فأجبتها بجفاء :

ـ لا شيء .. ارجوك ان تتركيني في حالي ...

وندمت على هذه الاجابة ، اذ يعلم الله اي نوع من الهواجس قد انتابها ، لا شك انها قد اعتقدت انني احب ... وليت الامر بهذه السهولة ! وفي اليوم الثالث حدث ما جعلني اقفز من السرير واجري في حالة هياج الى التلفزيون . كنت قد صحوت لتوي من اغفاءة بعد الظهر وكان صوت التلفزيون يصل الى اذني وانا مستلق على السرير دون ان انتبه لما يقال . ولكن المذيعة ذكرت هذا الاسم ، نعم هذا الاسم نفسه «حسن الضوي» وبعده اسمين اخرين لم اتبينهما فيما انتابني من انفعال . ما ان دخلت الصالة حتى رأيت اعلانا على شاشة التلفزيون تبعه اعلان اخر وهكذا ، تلفت حولي مستنجدا فلم اجد سوى ابن شقيقتي ، وهو طفل عمره سنة واحدة ، يجلس على الارض وفي يده تمثال صغير يضعه في فمه وقد بدا كأن الامر لا يعنيه ، بل انه عندما رآني رمى التمثال وبدأ يضرب الهواء بيديه ورجليه وهو ينظر اليّ ضاحكا وكأنه قد تحول بدوره الى اعلان عن لبن مجفف للاطفال . عدت ثانية الى حيث كانت والدتي ومعها شقيقتي تجلسان متجاورتين تتحدثان وتشتغلان بما يسمى « الكروشيه » .وقفت لحظة فلم تنظر احداهما اليّ ، وكانت شقيقتي ضيفة عندنا لايام ، وهذا هو ما جعلني احاول الا ابدو عنيفا ، صحت بهما :

ـ ماذا تفعلان ؟

فالتفتتا ناحيتي متسائلتين ، ومضيت اصيح :

ـ كيف تتركان طفلا كهذا بمفرده امام التلفزيون ؟

فتساءلت شقيقتي :

ـ اليست البنت معه ؟

فعلا صوتي الى درجة آذت اذني :

ـ لا ... ليس معه احد !!

فقالت والدتي :

ـ وما الذي جرى ؟

ـ ما الذي جرى ؟! تقولين ما الذي جرى ؟ الا يحتمل ان يعبث بالتلفزيون ويؤذي نفسه او يحدث حريقا او ....

ـ لم يحدث شيء من ذلك والحمدلله .

فرفعت عقيرتي ثانية :

ـ ولكن كان يمكن ان يحدث

فصاحت شقيقتي بدورها :

ـ يا اخي لم يحدث .. الحمد لله .

ـ وما الفرق بين ما يحدث وما لا يحدث ؟ بمجرد حدوثه ومضى

الوقت بمستوى ما حدث وما لم يحدث . المهم هو ان هناك اهمالا ... ولماذا يترك الولد ...

ـ أف ! برنامج للاطفال وتركناه مع البنت ويظهر انها ..

ـ برنامج اطفال ؟ وهل سيفهم شيئا ؟

ـ احيانا تكون هناك حيوانات واشياء كهذه .

ـ وما هذه الاسماء التي يذكرونها ؟

ـ وكيف اعرف ؟ لعلها اسماء اطفال هذه اعياد ميلادهم .

ـ ولكني سمعت اسم رجل اعرفه ؟!

فضحكت شقيقتي قائلة :

ـ يجوز انه عاد طفلا كما كان؟ على رايك ما الفرق بين ما كان منذ خمس دقائق وما كان منذ خمسين سنة ؟ كلاهما ماض ولاوجود له.

ـ آه .. علموك الفلسفة واتلفوا عقلك . اين جريدة اليوم ؟

وجدت برنامج التلفزيون في الجريدة على هذه القناة برنامج اطفال فعلا ، يظهر ان هذه كانت نهايته . ارتديت ملابسي بسرعة وتوجهت الى مبنى التلفزيون ، وكم كنت خائفا ! اذ يعلم الله كم وجها يمكن ان اراه في مكان كهذا واسأل نفسي اين رأيته من قبل ؟ قال لي الرجل الذي يجلس في مكتب الاستعلامات انه يتعين عليّ مقابلة المذيعة المختصة اذا كنت اريد اي استفسار بشان البرنامج .وسالني عما اريد ، فكرت لحظة ثم شكرته وانصرفت . حتى لو تحملت هذا الموقف الشاذ ـ او هكذا سيبدو للمذيعة ـ فما الذي انتظره ؟ لا بد انها الان قد تخلصت من كل ما يتعلق بهذه الحلقة من خطابات واعتبرتها ماضيا لا رجوع اليه . ولكن التسجيل ،نعم ! هذه هي الوسيلة ، التسجيل ! اي شيء يسجل يرجع الماضي ويجعله يحدث مرة اخرى ؟ ولكن ، ما الفائدة ؟ حتى لو شاهدت الان فيلما يمثل حسن الضوي وهو يصافحني في المأتم فانه لن يأتي بجديد . ولا أظن برامج الاطفال تسجل لتذاع مرة اخرى ؟ وحتى لو سجلت فما النتيجة ؟ سأسمع الاسم مع اسماء اخرى ولكني لن اعرف اين اجد حسن الضوي،حتى لو كان هذا الطفل هو ابنه ، يعني حسن الضوي « جونيور »كما يقولون ، او ابن اخيه او يمت له بصلة تضعني على الطريق الصحيح الى حسن الضوي الاصلي ، لعنة الله عليه !

وصلت المنزل كالفسيخة ، خلعت ملابسي وجلست اتعشى مع والدتي واختي . كنت صامتا وغارقا في البؤس. وفجأة قالت شقيقتي :

ـ على فكرة ، واحد اسمه حسن طلبك في التليفون .

فوضعت الملعقة في الطبق ، وادهشني كم كان صوتي جهوريا وكأن في اعماقي شخصا اخر هو الذي صاح بصوت زلزل المبنى باكمله :

ـ حسن ! حسن ايه ؟ حسن ايه ؟ ...

وصاحت والدتي وهي في اشد انفعالاتها :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ! مالك يا بني ؟ جرى ايه ؟

وكنت قد هدأت قليلا بتأثير الذهول الذي اصابني من الصوت المجسم الذي صدر عني دون ارادة ، فاجبتها بهدوء :

ـ من حسن هذا ؟ حسن ايه ؟ المذكر ؟

ـ هو حسن الذي يسأل عنك كل مرة ، حسن حسني . اختك ردت على التليفون ثم ناولتني السماعة .

ـ انت متأكدة انه هو ؟

فتفرست والدتي في وجهي ثم مضت تقول :

ـ ايوة يا بني وسألته عن والدة ، وجاوبني ، وقال لي انه سيمر عليك غدا .

حقا ، كان يجب ان اتذكر حسن حسني منذ البداية . عالم في الذرة ، لعله يستطيع ان يخرجني من حيرتي بوسيلة علمية . ركبت بجواره وسألته والسيارة تندفع بنا في شارع مراد :

ـ قل لي ، لك قريب اسمه حسن الضوي ؟

فضحك ضحكة خيل لي انه لن ينتهي منها ابدا ، واخذت اتفرج على شاربه الاحمر ونظارته السميكة وحاجبيه الكثيفين جدا حتى سكت اخيرا ونظر اليّ بجانب عينه الزرقاء قائلا :

ـ عهدي بك تقلب الاوضاع ولكن ليس الى هذه الدرجة .قريبي هو الذي يكون اسمه حسني وليس الذي يكون اسمه حسن . اللهم الا اذا كان الاب هو الذي يسمى باسم ابنه وليس العكس ! وحتى لو كان اسمه حسني ، انا وحدي اعرف خمسة اسمهم حسن حسني ..

واستمر وهو يلف عجلة القيادة في اتجاه الجزيرة :

ـ اعدهم لك يا سيدي ، حسن حسني رشوان ، و...

فصحت بـه :

ـ اسكت ، كفانا هذرا ... انت لا تتصور الحال التي اعانيها .

فالتفت اليّ وقد خفض رأسه ووجه انظاره من فوق حافة نظارته، وحاجباه الكثيفان في اقصى ارتفاع ، ثم عاد يراقب الطريق ويقول :

ـ ما الحكاية هذه المرة يا ترى ؟ اخر مرة انفقنا عشرة ايام نبحث ونفكر ونسأل حتى عرفنا اين رأينا سيدني بواتييه في فيلم قديم ، ماذا كان اسمه ؟ آه ... « غابة السبورة » مع جلين فورد ؟ بالله عليك ما الذي كان يحدث لو تناسينا الامر ، ولعلك نسيته الان؟

ـ وما الذي يحدث لو نمنا الليلة دون ان نتفسخ ؟ هل سنموت ؟

ـ لو ان الفسحة ستكلفنا كل هذا العذاب لكان الافضل الا تنفسخ الى الابد .

ما حكاية الاستاذ حسن ... حسن ايه ؟

ـ الضوي

ـ آه ، من الضوء ؟

ـ لا ... من الضي ، يعني الضياء ...

ـ وما الفرق ؟ انت ادرى بهذا على اية حال . المهم ،ما حكايته؟

فرويت له مشكلتي ونحن واقفان في السيارة نشرب زجاجتي غازوزة على الكورنيش، وكان يرشف من زجاجته ويدخن سيجارته ويبدو عليه انه لا يصدقني . واخيرا قال :

ـ اسمع ، كنا في الثانوي ندرس في العربي قصة اسمها يشبه هذا الاسم؟

آه ... حسن العقبى ، يعني العاقبة عندما تكون حسنة ، ولكننا كنا نتعمد تحريف الاسم ليبدو وكأنه شخص اسمه حسن العقبى، على وزن الاستاذ حسن الضوى الذي تحكى عنه .

ويظهر انه رأى تعبيرا على وجهي لا يدل على استعداد لمسايرته فاستطرد :

ـ آه ... متأسف . طيب ، حسن الضوئي ، من الضوء ، لعله حسن بن الهيثم ، كان مشهورا ببحوثه في الضوء .

ـ بالله عليك ..

ـ اسمع ، مررت عليك الليلة لكي نحاول قضاء وقت طيب . نشرب شيئا ... نصطاد شيئا ... ولنؤجل هذا الموضوع الى الغد .

ـ انت لا تفهمني يا حسن، لن استطيع ان استمتع بشيء لان ذهني سيكون شاردا في هذا الموضوع .

ثم صحت مستطردا :

ـ علة ! مرض ! ماذا افعل ؟

فقال وهو يطفي سيجارته ويصدر صوتا متصلا من اسفل حلقة:

ـ اسمع ، لماذا لا تجرب دفتر التليفون ؟

وقلت له ونحن نسرع عائدين الى المنزل :

ـ وما ادرانا ؟ افرض ان اسمه حسن عبداللطيف الضوي ؟ فماذا نفعـل ؟ فتنهـد ثم اجاب وهو يدق باصابعه على حافة النافذة :

ـ سنقرأ جميع الاسمـاء التي تبدأ بحسن .

ـ اعوذ بالله .

ـ اذا كنت تجد ذلـك مملا فماذاافعل انا ؟

ـ تستطيع ان تنصرف وتتركني . لست مرغما على ذلك . وعلـى ايـة حال ، نحمد الله انه حسن وليس محمد والا كانت المشكلةاعقد..

ـ حقا . لماذا لا يرتبون الناس في دفتر التليفون بالقابهم ؟لنفرض ان شخصـا اسمه محمد حسن احمد علي البشوتي ، فكيف يطلب منـي ان اعرف اسمه بالكامـل ؟

ـ ما دام لـك شأن به فالمفروض انـك تعرفه .

فرفع حاجبيه وقال ببطء :

ـ كوني لا اعرف رقم تليفونه يدل على اننا لسنا على معرفةوثيقة. ثم . ايهمـا اسهل ، البشوتي فقط ثم اجد الباقي بعد ذلك ، كمـا يفعلون في الخارج ، ام كل هـذا ؟

ـ هذا ينشأ عنهمشكلة اخرى ، اين تبحث ؟ فـي الالف حيث ستكـون كـل الاسمـاء ؟ ام في البـاء ؟

ـ هذه مشكلـة يمكن حلها . اي الطريقتين لا بأس بها .

ـ وما فولك في انني اعرف شخصا اسمه محمد حسن احمدعلي؟

ـ محمد حسن احمد علي ماذا ؟

ـ لا شـيء .

ـ وما لقبه ؟ علـي ؟

ـ عليك ان تجد افل هذه الاسمـاء انتشارا فيكون هو اسـم العائلـة . كمـا هو مثـلا في حالـة : محمد البنداري حسنين .اسمه الذي يعرف به هـو « السيد البنداري » رغم انه اسم ابيه .

ـ لعنة الله عليـه وعلى ابيـه .

ثم قال وهو يفتح الدفتـر :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم . طبعاعائلة كبيرة كعائلة الضوي لاشك فيهـا اكثر من واحد اسمه حسن ولديه تليفون باسمه .

فصرخت فـي وجهـه :

ـ تعرفهم ؟

فالقى بظهره على السرير واخذ يضحك ويضحك فخطفت منـه الدفتر ،ثم بدانا نبحث فلم نجد شيئا ، وتساءل حسن :

ـ لم تقل لي ،لماذا لـم يشغلك الامر بعد مقابلتك له في المأتم؟

ـ لاني لم أكن سمعت عنه من قبل .لم يكن هناك شيء اريد ان اتذكـره .

ـ سبحان الله ! وما الذي تريد ان تتذكره الان ؟ الا ترى ان هذه الحالـة تختلف عن حـالاتك السابقـة ؟

ففكرت قليلا ثم قلت :

ـ لا ادري . لعلي سبق ان عرفته قبل المأتم والا فلمـاذا ذكر لـي اسمـه ؟ هذا هـو بالضبط مـا اريـد معرفته ، نعم . هل سبـق ان عرفتـه قبـل ام لا ؟

فامسك بذراعي قائـلا :

ـ اسمع ، هيا بنا . ما زال امامنـا وقت لقضاء سهرة طيبة .

فهززت كتفـي واجبته :

ـ ليست المشكلـة هي الوقت فقط . اين نذهب؟اي مكان ؟

ـ حقـا ، يلزمنـا هـذا ايضا ، مكـان .

ومرت بضعـة ايام حاولت فيهـا جاهدا ابعاد الامر عن ذهني . وكدت فعلا انسى هذا الموضوع ، وذات صباح ، وكان هذا اليوم عطلـة رسميـة في الحكومة ، امكنني لهذا السبب ـ ان اتصفح الجريدة بشيء من الدقة،حتى وصلت لصفحةالوفيات .شعرت بشيء كالتيارالكهربائي يسري في مؤخرة رأسي، هذا الشعور الذي يحدث عندمـا اكتشف ان صرصارا من النـوع الذي يطير قد حط على رقبتي . مثل هذا الموقف عندمـا يحدث في فيلم سينمائي عادة تصحبه موسيقى تصويرية تتكون من جملـة واحدة تشبه الانفجـار الذي يتداعى تدريجيا ، تعبر عنرهبة الموقف وتساعـد المشاهديـن على الحصول على الانفعال الكامل . ولكن الحياة الواقعية ـ للاسف ـ لا تصحبهـا موسيقى تصويرية ، وهذا هو السبب في انها ـ في رأيي ـ لا تستحق المشاهدة . لعل هذه النزعـة والى حد ما ، اثر من اثار هـذهالمفاجأة وما نتج عنهـا من احساس بالمرارة لا اظـن انني سأتغلب عليه . كلمات قليلة ، لم يتصور عامـل المطبعة ابدا ما يمكن ان تحدثه في نفس شخص مثلي :

« اسرة المرحوم ... » ثمبخط كبير ، واضح ، كأنه القدر نفسه: « حسن الضوي » ! تحيى الذكرى السنوية الاولى لوفانـه بتلاوة آي الذكر الحكيم ... بمنزله (٣٠! شارع الاشجار ! بحلوان ! ((الذكـرى السنوية ؟! كيف ؟! لقد قابلته منذ ثلاثة اشهر ـ وبضعة ايام ـ فـي المأتم ؟ كان ميتا عندما قابلته ؟ استبعدت تماما فكرة تشابه الاسماء ، فالحبكة ـ كما يقولون ـ قد اكتملت تماما ، وانا رجل ادب، اعيش بالادب والشعر ، يستحيل ،هذا هـو حسن الضوي الذي كنت ابحث عنه ، ولكن ، واأسفاه ! جثة هامدة ! حسن حسني ، أن ينقذني الا حسن حسني، هو الوحيد الذي يقاسمني هذا السر وهو الوحيد الذي يمكنه ان يفهمني. طلبته تلفونيا وكانت الساعة ما تزال منتصف الثامنةصباحا طلبت ايقاظه وكنت اتصور منظره بدون النظارة وهـو يتخبط الـى التليفـون :

ـ حسن ! حسن ! تعـال حالا .

ـ ماذا حدث ؟ القيامة قامت ؟

وتثاءب طويـلا ، فصحت بـه .. هامسـا :

ـ وجدته .. وجدت حسن الضوي !

ـ صحيح ؟ الف مبـروك ...

ـ هكـذا ؟

فرفع عقيرتـه صائحـا :

ـ طبعا هكذا ... اتريدني ان ادهش لانـك عثرت علـى شخص موجود ؟ ما الغريب في هذا ؟ رأيت شخصا ثم بحثت عنه ثم وجدته، اهذا يستحق ان توقظني من النوم وانا سهران للصباح ؟

ـ فيم كنت سهران ؟

فتثاءب ثانيـة وقال :

ـ خلينا في حسن الضوي .

ـ ارجوك .. تعال بسرعـة .

وأخذت انمشى في المنزل في انتظار حسن ووالدتي ترمقنـي بانظارهـا الممتلئـة بالحيرة والنكد . واخيرا افرغت ما في نفسها :

ـ لو كنت فقط تقول لي يا بني ...

ـ اسمعي .. سأقول لك ، اصابتني لوثة لاني لم اتزوج،وعلاجي هـو الزواج ، نعـم ، هذا هـو الحل

فمصمصت شفتيهـا قائلـة :

ـ معلش ، اسخر مني كما تشاء .

ثم اضفت قائلا لنفسي :

ـ النساء تظن ان الجنس لا يمكن الحصول عليه الا بالزواج . لماذا لا يسألن حسن حسني اين قضى سهرة امس ؟

ورفع حسن حاجبيه بصعوبة وقال :

ـ حلوان ! يا نهار اسود !

ـ سادفع ثمن البنزين ، لا تقلق .

ـ ليست هذه هي المشكلة يا استاذ .

ـ ما المشكلة ؟

فرمى نفسه على مقعد وثير وطلب ان يشرب فنجان قهوة ، ثم اجاب :

ـ المشكلة هي ... لماذا تريد ان تذهب ؟

ـ لماذا ؟ وكيف يمكنني ان اتجاهل الامر ؟

ـ الا ترى انك لن تقابل حسن الضوي؟

ـ لماذا ؟

فصاح بكل قوة :

ـ لانه مات ! يا غبي ! لماذا توقظني من النوم في يوم كهذا ؟

ـ انا غبي ؟ كيف اذن قابلته منذ ثلاثة شهور ؟

فتثاءب قائلا :

ـ هذا كان شخصا اخر بنفس الاسم . ولعله لم يكن حتى بنفس الاسم ، هو قال لك « حسن الضوي » ولم يكمل الجملة . وكان يجب ان تسأله :

« ما له حسن الضوي ؟»

ـ لماذا لا تعاونني في حل هذه المشكلة ؟

ـ لانها لن تحل . اذا كانت سنوية اليوم هي سنوية حسن الضوي الذي تبحث عنه فلن يمكنك ان تعرف اصل الموضوع من اقاربه . واذا كانت سنوية رجل اخر فمن باب اولى لا يوجد داع لحضورها . ثم قل لي، هل تعرف احدا من اقاربه ؟

لا ....

ـ كيف اذن نحضر الذكرى السنوية ونحن لا نعرف احدا منهم ؟

ـ وماذا في ذلك ؟ حسن الضوي نفسه حضر مأتم زوج خالتي وهو لا يعرف احدا من اهل الميت .

فرمقني بخبث وقال :

ـ كيف ذلك ؟ كان يعرفك انت ؟!

ثم اضاف :

ـ ولا اظن انه سيحضر مأتمه هو ، او ذكراه السنوية .. اسمع..

ـ نعم ؟.

ـ لديّ فكرة .. اذا امكننا ان نركب صاروخا سريعا جدا ينقلنا الى كوكب اخر يبعد عن الارض بمقدار سنة ضوئية ، على ان نصل هناك بعد يوم او يومين .. فان حسن الضوي سيكون ما زال حيا بالنسبة لنا ، ويمكنك من هناك ان تشاهد مأتم زوج خالتك وحسن الضوي وهو يصافحك . وهناك طريقة اسهل من ذلك .تخيل اننا هناك الان ، دون الحاجة الى ان ننتقل فعلا ،فهذا في الواقع ليس ضروريا ، فنحن لا نريد عينات من احجار هذا الكوكب ،كل ما يهمنا هو الرجوع الى ايام حسن الضوي ، الم يخطر ببالك ابدا ان كل هذا قد يكون من ابتداع خيالك ، بما في ذلك المأتم والاتوبيس والتلفزيون ؟

فاطرقت برهة ثم قلت له :

ـ ليس هذا هو ما انتظره منك يا ابا علي . اتسخر مني ؟ والنعي من ابتداع خيالي ايضا ؟

فصاح غاضبا :

ـ وماذا تريد مني ان افعل ؟ الحياة معقدة بما فيه الكفاية فبالله عليك لا تعمد الى التسبب في مزيد من التعقيد وخلق المشاكل من لا شيء . حبة ، تعمل منها قبة . بل قد لا تكون هناك الحبة نفسها. عبث اطفال لا يليق برجل مثلك .انس هذا الموضوع بالله عليك وبدلا من ان تقضي ليلتك في البحث عن الاشجار وحضور السنوية ـ وقد لا نجد شارعا بهذا الاسم ، بالمناسبة ـ تعال معي .

ـ الى اين ؟

ـ الى حيث كنت ليلة امس.

ـ واين كنت ؟

فمد ساقيه على منضدة صغيرة امامه ، واتجه ناحيتي باحدى نظراته الخبيثة قائلا :

ـ سأحكي لك ...


اخر ما اصدرته دور النشر اللبنانية والعربية

بالاضافة الى العرض الدائم لاحدث مجلات

الازياء والموضة الاوروبية

تجدونه

في مكتبة انطوان

فرع : شارع الامير بشير

بيروت